

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

الورد الثاني

اقتضت سنة الله في هذه الدنيا أن تكون دار ابتلاء وامتحان يتبين به الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر.

والصبر على المصائب والاسترجاع مقام جليل من مقامات العبودية، وصاحبه يجازى بأعظم الثواب؛ لأن الله تعالى يجزي الصابرين أجرهم بغير حساب.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥١]

فجاءت هذه الآيات الكريمة تُبين سنة الله الجارية في عبادته، أن لا أحد منهم يخلو من ابتلاء، ولا ينجو من امتحان؛ تتنوع عليه المصائب، وتتعاقب عليه المحن، فتُظهر ما في قلبه من يقين أو جزع، وتسوقه إلى ربه سوقاً.

لكن المؤمن الحق في كل أحواله من خير إلى خير، فإن نزل به ضرر قابله بصبر واسترجاع، وقال بقلبي موقن: (إِنَّا لِلَّهِ) أي: نحن ملك لله، لا نملك من أمرنا شيئاً، نتقلب في تدبيره، ونُصَرَّف تحت حكمه.. يُعطي ويمنع، يرفع ويخفض، يُميت ويُحيي، يبسط ويقبض.

وما من ابتلاء يصيبنا، إلا وهو صنيع أرحم الراحمين، بتصرّف في ممالكه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فإذا حقق العبد هذا المعنى في قلبه، أيقن أن لا اعتراض على الله، ولا حول له ولا قوة إلا به، وأن ما أصابه إنما جرى بتقدير من لا يخطئ، وبرحمة من هو أرحم به من نفسه، فيورثه ذلك رضا عن ربه، وشكراً له على تدبيره، وإن لم تُدركه حكمته في الحال، فإنه على يقين أنها له خير، وإن خفي وجهه.

(وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ثلاث كلمات؛ تُضيء دروب البلاء وتُرسي معالم الصبر، فيها إيمان بالميعاد، وتصديق بالجزاء، وتذكير بأن العاقبة للمتقين.

فإذا أيقن العبد أنه إلى الله راجع، وأن ما فاتته في الدنيا سيُعوّضه الله عنه يوم القيامة أضعافاً؛ صبر واحتسب، وعلم أن ما عند الله خير وأبقى؛ فإن صبر كانت له البشرية، وإن جزع فاتته الأجر ولم يكن له إلا السخط.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

وهاتان الكلمتان (إنا لله وإنا إليه راجعون) جمعتا أصليين عظيمين:

الإقرار بالربوبية والتوحيد في قوله: (إنا لله) فكُل ما للعبد من أهلٍ ومالٍ ونفيسٍ هو لله، قد جعله عنده أمانة، وأذن له بالانتفاع به عارية مؤقتة، فإذا استردّها سبحانه؛ فبحكمته وعدله، لا ظلم فيه ولا جور.

ثم الإيمان بالمعاد والرجوع في قوله: **(وإنا إليه راجعون)** فالمآل إليه، والمرجع بين يديه، وسنعود كما بدأنا: لا مال ولا أهل ولا جاه، إنما نحمل معنا ما قدّمنا من الحسنات والسيئات، ومن أيقن هذا، صُغرت عنده المصائب، واستحلى الصبر، وتعلّق قلبه بالدار الباقية. وقد أثنى الله تعالى على الصابرين المسترجعين بأجل الثناء وأعظمه، فقال: **﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾** أي: يثني عليهم في الملأ الأعلى، ويرفع ذكرهم، ويُفيض عليهم من رحمته ما لا يبلغه عملهم.

ومن رحمته: أن وقّهم للصبر، وشرح صدورهم للاسترجاع، وهدى قلوبهم في لحظة البلاء. **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ﴾** أي الذين دلّهم إيمانهم إلى حسن القول، وألهمهم الله ما يُرضيه، فاهتدوا إلى ما فيه النجاة.

فالصابرون حقًا، هم من فوّضوا الأمر إلى ربهم، واسترجعوا عند المصيبة بقلوبٍ موقنة، وألسنة خاشعة، فكان الاسترجاع لهم شفاءً من الألم، وزيادة في الإيمان، وتذكراً بالمصير، وبُشرى بالأجر الموفور يوم يلقّون ربهم.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

وقد دلت السنة على فضل من صبر واستسلم لله وبادر في الاسترجاع؛ أن يعوضه الله تعالى خيراً مما فقد، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهم أجرني في مصيبتى، واخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها.** قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنني قتلها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ) [رواه مسلم].

فانظر -رعاك الله- إلى عاقبة الصبر والرضا، وتأمل ما يورثه الاسترجاع من فضلٍ وخير، فقد آلت أم سلمة رضي الله عنها -بعد صبر واحتساب- إلى أن أكرمها الله بنكاح خير خلقه، محمد ﷺ جزاءً لصبرها، وبركةً لرضاها، وإكرامًا لانطراحها بين يدي الله في مصابها.

فلْيُوْظِنِ العبد المؤمن نفسه على الشكر عند العافية، والصبر عند البلاء، وليستحضر في قلبه معاني الاسترجاع: أن الأمر كلّهُ لله، ومعاني الرضا: أن ما اختاره الله خيرٌ مما اختاره لنفسه، وليتسلّح في ساعات المحنة بهذين السلاحين: الصبر والذكر؛ فما من مصابٍ يطرق القلب -وهذان السلاحان حاضران- إلا وترك فيه من الطمأنينة والرضا ما يُنسيه ثقل المصيبة، وإن عظمت.